احمـــد بن ابى دؤاد

بقلم أحمد هاشم عطية
المدرس بالمدرسة التوفيقية الثانوية

هو أبو عبد الله أحمد بن أبى دؤاد بن فرح بن مالك الإيادى ، رجل من نزار ، قاضى القضاة زمن المعتصم والواثق فى الدولة العباسية ، وأحد أساطين المتكلمين والبصر بالفقه والكلام ومسائله والأدب وأخبار الناس ، وكان أفحل المتكلمين إقداما على القول بأن القرآن مخلوق ، تراكا للهو ، ذا مروءة عربية وتعصب لمذهبه .

ولد سنة ١٦٠ هـ بالبصرة كما ذكره الخطيب البغدادى وابن خلكان ، وقيل إن أصله من قرية بقنسرين ، وتوفى سنة ٢٤٠ هـ فى خلافة المتوكل ببغداد

وسواء أولد بالبصرة أم بقرية من قنسرين ، فإنه تلقى العلم والفقه على العلماء بالبصرة ، وصحب هياج بن العلاء السلمى ، وزرقان غلام الهذيل المحدث ، وأخذ عن واصل بن عطاء علم الكلام ، وتضلع من علم الكلام فصار إلى الاعتزال ، وحمل المأمون على القول بخلق القرآن . وجلس لامتحان العلماء فى هذه المقالة إلى أيام الواثق

وكان نادرة عصره فى علوم الفقه والكلام والأدب ، وفيه يقول أبو العيناء : «مارأيت رئيسا قط أفصح ولا أنطق من ابن أبى دؤاد ، وكان شاعرا مجيدا ، وفصيحا بليغا ، عالما بالأنساب والسير وأخبار الناس . ذكروا أن المأمون سأل جلساءه عمن بايع ليلة العقبة من الأنصار ، فلم يدر أحد عدتهم ، فعدهم أحمد واحدا واحدا بأسمائهم وكناهم وأنسابهم ؛ فقال المأمون : إذا استجلس الخليفة فاضلا فمثل أحمد . فقال ابن أبى دؤاد : إذا جالس العالم خليفة فمثل أمير المؤمنين الذى يفهم عنه ويكون أعلم بما يقوله منه . روى له دعبل الخزاعى فى كتابه الذى جمع فيه أسماء الشعراء أبياتا حسانا ؛ وكان ابن أبى دؤاد يقول : ثلاثة ينبغى أن يبجلوا وتعرف أقدارهم : العلماء ، وولاة العدل ، والإخوان ؛ فمن استخف بالعلماء أهلك دينه ، ومن استخف بالولاة أهلك دنياه ، ومن استخف بالإخوان أهلك مروءته . وكان

الضحاك الشاعر المشهور يقول لبعض المتكلمين : ابن أبي دؤاد عندنا لا يعرف اللغة ، وعندكم لايحسن الكلام ، وعند الفقهاء لايحسن الفقه ، وهو عند المعتصم يعرف ذلك كله .

وكان ابتداء اتصاله بالمأمون أنه قال : كنت أحضر مجلس القاضي يحيى بن أكثم مع الفقهاء ؛ وإني عنده يوماً إذ جاءه رسول المأمون ، فقال له: يقول لك أمير المؤمنين : انتقل إلينا أنت وجميع من معك من أصحابك . فلم يحب أن أحضر معه ، ولم يستطع أن يؤخرني ، فحضرت مع القوم ، وتكلمنا بحضرة المأمون ، فأقبل المأمون ينظر إلى إذا شرعت في الكلام ، ويتفهم ما أقوله ويستحسنه ، ثم قال لي : من تكون ؟ فانتسبت له ؛ فقال: ما أخرك عنا ؟ فكرهت أن أحيل على يحيى فقلت : حبسة القدر وبلوغ الكتاب أجله . فقال المأمون : لا أعلن ما كان لنا من مجلس إلا حضرته . فقلت : نعم . ثم اتصل الأمر . وقيل : قدم يحيى بن أكثم قاضياً على البصرة من خراسان من قبل المأمون في آخر سنة ٢٠٢ هـ ، وسنه نيف وعشرون سنة ، فاستصحب جماعة من أهل العلم والمروءات . منهم أحمد بن أبي دؤاد ، فلما قدم المأمون بغداد في سنة ٢٠٤هـ قال ليحيى: اختر لي من أصحابك جماعة يجالسوني ويكثرون الدخول إلي ، فاختار منهم عشرين فيهم ابن أبي دؤاد ، ثم قال : اختر منهم . فاختار خمسة فيهم ابن أبي دؤاد ، واتصل أمره

وأسند المأمون وصية إلى أخيه المعتصم قال فيها : « وأبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمرك ؛ فإنه موضع ذلك كله ، ولا تتخذن بعدي وزيراً . » فلما ولي المعتصم الخلافة جعل ابن أبي دؤاد قاضي القضاة ، وعزل يحيى بن أكثم ، وخص به أحمد ، وكان لا يفعل فعلا باطناً ولا ظاهرا إلا برأيه . والذي أصار ابن أبي دؤاد إلى ما صار إليه هو موافقة مذهبه لما كان يذهب إليه المأمون من آراء المعتزلة ، وأن المأمون كان معروفاً بمحبته للعلم والعلماء وشغفه بالحكمة والحكماء ، بل لم ير في أبناء الملوك من تعشق العلوم الحكمية على حداثة سنه مثله ، فما دخل عليه مرة إلا وألفى في مجلس من العلماء والأدباء . وقد ورث ذلك عن أبيه الرشيد ، واقتدى به أو أربى عليه ، فطارت شهرته

فى العلم والفلسفة ، إلى أن حظى بقربه أحمد بن أبى دؤاد ، فوجد فيه المأمون طلبته ، ورأى أحمد فى المأمون ضالته للظهور بمذهب المتكلمين ، وجعله مذهباً رسمياً للدولة بعد أن كان هذا المذهب فى البصرة نظرياً ، وأتم ما بدأ به ثمامة بن أشرس ، من حمل المأمون على أن يعتقد هذا المذهب اعتقاد حقا، وحمله على إظهار القول بخلق القرآن ، وعلى دعوة الناس إلى ذلك ، وعلى تعذيب المخالفين والتنكيل بهم ، فما جاءت سنة ٢١٨ هـ حتى كتب المأمون إلى نائبه على بغداد إسحق بن إبراهيم كتاباً جاء فيه :

« وقد عرف أمير المؤمنين ، أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لانظر له ولا روية ولا استضاء بنور العلم وبرهانه - أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وقصور أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوه كنه معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه الله ويخترعه ؛ وقد قال تعالى : « إنا جعلناه قرآناً عربياً » فكل ماجعله فقد خلقه . كما قال : «وجعل الظلمات والنور» وقال: « نقص عليك من أنباء ماقد سبق »فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها وقال : « أحكمت آياته ثم فصلت » والله محكم آياته ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه ؛ ثم انتسبوا إلى أهل السنة ، وأنهم أهل الحق والجماعة ، وأن من سواهم من أهل الباطل والكفر ، فاستطالوا بذلك وأغروا به الجهال ؛ حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب ، والتخشع لغير الله إلى موافقتهم ، فنزعوا الحق إلى باطلهم ، واتخذوا من دون الله وليجة إلى ضلالهم . . .

إلى أن قال :

« فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ، المنقوصون من التوحيد حظاً ، أوعية الجهالة ، وأعلام الكذب ، ولسان إبليس الناطق فى أوليائه والهائل على أعدائه من أهل دين الله . ولعمر أمير المؤمنين إن أكذب الناس من كذب على الله ووحيه ، وتخرص الباطل ولم يعرف الله حق معرفته . فاجمع من بحضرتك من القضاة فاقرأ عليهم كتابنا ، وامتحنهم فيما يقولون ، واكشفهم عما يعتقدون فى خلق

الله وأحداثه ، وأعلمهم أني غير مستعين في عمل ولا واثق بمن لا يوثق بدينه، فإذا أقروا بذلك ووافقوا فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود ومسألتهم عن علمهم في القرآن وترك شهادة من لم يقر أنه مخلوق ، واكتب لنا بما يأتيك من قضاة أهل عملك في مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك . »

هذا كتاب المأمون في المحنة ، وقد ذيله بأشخاص كبار فقهاء بغداد وأئمة الأثر والرواية . وتم الأمر بالمحنة التي طال ضررها. واشتهر من بين رجالها الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه . وما كان للمأمون أن يكتب كتابه هذا ويحمل الناس على غير ما يعتقدون وإكراههم على أمر لم تمض به سنة ولم يجدوا فيه برهاناً من أنفسهم ، مع أن الإكراه على أصل الأصول وهو الدين الخالص قد أباه الشرع ونهى عنه في غير موضع من التنزيل الكريم ، قال جل وعلا : « لا إكراه في الدين » ويقول جل شأنه: « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» ولكن سكرة الدولة وانقلاب الرأي عقيدة بالتسليم والتقليد ، وعظم الطول والقدرة ، كل أولئك يحول دون الإنصاف والاعتدال غالباً

وإذا كان شعور السلف بما يترتب على الإطالة في هذه المقالة من الخطر الشديد على الدين والقرآن ـ قد دعا إليه انتشار الزندقة وظهور الملاحدة وتهجم كثير من أهل الشبهات على نواحي القرآن بالتأويل الباطل والتعليل المردود ، فلنحن أحق منهم بإغلاق هذا الباب وسداد هذه الثغرة ، لأن ما كان في زمنهم من الفساد وسوء التأويل إذا قيس إلى ما في زماننا يعد كالمتلاشي الزائل، وأولى بنا أن نصرف عنان القول إلى ماهو أجدى علينا ، من مطارحة الثقافات المتنوعة التي تقوم بشئون الاجتماع من تهذيب وتربية وتعليم ودارسة الآداب المختلفة والعلوم العملية النافعة ، ولكن ابن أبي دؤاد بلغ به التعصب لمذهبه ـ مع ما اتصف به من وفرة العقل وكبر الفهم ـ أنه كان يغري الخلفاء بمن خالف مذهبه . ويسعى لديهم بما يعجل نكالهم وقد أثر عنه من ذلك ماشوه وجه حياته ، وكسف شمس فضائله ؛ فقد أغرى المعتصم بحميد بن سعيد وهو من وجوه المعتزلة، لمخالفته إياه في بعض مذهبه ، وقال إنه شعوبي زنديق ، فحبسه المعتصم . ثم بانت له

براءته ، أو للواثق من بعده ، فخلى سبيله ، وأخرج أحمد ابن حنبل من محبسه أيام المعتصم إلى مجلس جمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة وعلى رأسهم ابن أبى دؤاد ، فلما استقر بهم المجلس ، قال ابن أبى دؤاد : أليس لا شيء إلا قديم أو حادث ؟ قال ابن حنبل : نعم . فقال ابن أبى دؤاد : أوليس القرآن شيئاً ؟ قال ابن حنبل : نعم . فقال ابن أبى دؤاد : فالقرآن إذاً حادث ؟ قال ابن حنبل : ليس أنا بمتكلم ... إلى أن قال : وحكم كلام الله تعالى كحكمه على ، فكما لا يجوز أن يكون عليه محدثاً ومخلوقاً ، فكذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقاً ومحدثا . فقال ابن أبى دؤاد : أليس قد كان الله يقدر أن يبدل آية مكان آية ، وينسخ آية بآية ، وأن يذهب بهذا القرآن ويأتى بغيره ، وكل ذلك فى الكتاب مسطور ؟ قال ابن حنبل : نعم . فقال ابن أبى دؤاد : روينا فى تثبيت ما نقول الآثار ، وتلونا عليك الآية من الكتاب ، وأريناك الشاهد من العقول التى بها لزم الناس الفرائض وبها يفصلون بين الحق والباطل ، فعارضنا أنت الآن بواحدة من الثلاث . فلم يتكلم ابن حنبل ، فأمر المعتصم بضربه وحبسه ، فلما ولى الواثق الخلافة ذكر ابن حنبل وأمر فجيء به يرسف فى قيوده ؛ ذكر الخطيب البغدادى فى تاريخ الواثق وترجمته قال : سمعت طاهر بن خلف يقول : سمعت محمد بن الواثق الذى يقال له المهتدى بالله يقول : كان أبى إذا أراد أن يقتل رجلا أحضرنا ذلك المجلس ، فبينما نحن عنده ذات يوم إذ أتى بشيخ مصفود مقيد ، فقال أبى : إيذنوا لأبى عبدالله . يعنى ابن أبى دؤاد وأصحابه ، فدخل الشيخ مصلاه ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال : لا سلم الله عليك ! فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، بئسما أدبك به مؤدبك ! قال تعالى : وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها . والله ما حييتنى بها ولا بأحسن منها . فقال ابن أبى دؤاد : يا أمير المؤمنين ، الرجل متكلم . فقال له أبى : كلمه . فقال ابن أبى دؤاد : ياشيخ ، ما تقول فى القرآن ؟ قال الشيخ : أنصفنى فى السؤال . فقال له : سل . فقال الشيخ : ما تقول أنت فى القرآن ؟ قال ابن أبى دؤاد : مخلوق . فقال الشيخ : هذا شيء علمه النبى (صلى الله عليه وسلم) وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى ومن أتى بعدهم من أجلاء الصحابة ، أم شيء لم يعلموه ؟ فقال ابن أبى دؤاد : لم يعلموه . فقال ابن حنبل : سبحان الله اشيء لم يعلمه

النبي(صلى الله عليه وسلم) ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا الخلفاء من بعدهم وتعلمه أنت! فقطع بابن أبي دؤاد وخجل ، وقال لابن حنبل : أقلني . فقال الشيخ: والمسألة بحالها ؟ قال: نعم . قال : فما تقول في القرآن؟ قال ابن أبي دؤاد: مخلوق. قال ابن حنبل : هذا شيء علمه رسول الله(صلى الله عليه وسلم)وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومن بعدهم من الخلفاء أم لم يعلموه ؟ قال ابن أبي دؤاد : علموه ولم يدعوا الناس إليه . قال الشيخ : أفلا وسعك ما وسعهم ؟

قال محمد : ثم قام أبي ، فدخل مجلس الخلوة واستلقى على قفاه ووضع إحدى رجليه على الأخرى وهو يقول : هذا شيء لم يعلمه النبي(صلى الله عليه وسلم)ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا الخلفاء من بعدهم ولم يدعوا الناس إليه ؛ أفلا وسعك ما وسعهم ؟ ثم دعا عماراً الحاجب فأمره أن يرفع القيود عن الشيخ ويعطيه أربعمائة دينار ويأذن له في الرجوع ، وسقط من عينه ابن أبي دؤاد ، ولم يمتحن بعد ذلك أحداً ، رحمة الله تعالى عليه ، ولما ولي المتوكل أحيا السنة وأمات البدعة ، وعزل ابن أبي دؤاد ، ثم ولده من بعده ، وضيق عليهما ، وكتب للأمصار برفع المحنة وإظهار السنة ، وأخمد المعتزلة وكانوا في قوة ونماء إلى أيامه .

وكان ابن أبي دؤاد على جانب كبير من المروءة العربية المتمثلة في سخائه الذي امتلك به قلوب الناس ورجال الأدب والعلم ، فالتف الناس حوله وهتفوا باسمه ، كما هتف الناس قبل ذلك للبرامكة الذين أعلوا شأن الفرس بما أغدقوه على الناس وبما وسعوهم به من أنواع الكرم ، فأضاف إلى علمه جوده ، فكان بذلك جديرا بما نال من الحظوة والمكانة لدى الخلفاء ، وقوى نفوذه ، وكان بحكم عربيته يتعصب للعرب ويدفع عنهم - ما وجد إلى ذلك سبيلا - عنت الفرس والأتراك ؛ فقد خلص أبا دلف العجلي من يد الأخشيد وقد كاد يقتله ، وخلص خالد بن يزيد ابن مزيد الشيباني من يد المعتصم ، ووقف السفراء على بابه وفيهم أبو تمام ، وطال وقوفهم ، فلما دخلوا عليه قال لأبي تمام: أحسبك عاتبا . فقال أبو تمام : إنما يعتب على واحد وأنت الناس جميعا ، فكيف يعتب عليه ؟

ومرض ابن أبي دؤاد فعاده المعتصم في داره ، ونذر المعتصم إن شفي الله

ابن أبي دؤاد أن يتصدق بعشرة آلاف دينار ، فقال أحمد : إجعلها في أهل الحرمين. فقال المعتصم : نويت أن أتصدق بها ههنا وأن أطلق لأهل الحرمين مثلها .

وقيل للمعتصم : كيف تعوده وأنت لا تعود إخوتك وأجلاء أهلك ؟ فقال : وكيف لا أعود رجلا ما وقعت عيني عليه قط إلا ساق إلي أجرا ، أو أوجب لي شكرا ، أو أفادني فائدة تنفعني في ديني ودنياي ؛ وما سألني قط حاجة لنفسه ؟ وقال ابن حمدون : خرج علينا الواثق يوما . وكان من الأدب والمعرفة بالمنزلة العليا، وهو يقول: لقد عرض عرضة من عرضه لقول الخزاعي، يريد به دعبلا:

خليلي ماذا أرتجي من غنى امرىء طوى الكشح عني اليوم وهو مكين؟
وإن امرأ قد ضن عني بمنطق يسد به من خلتي لضنين

فانبرى أحمد يسأله كأنما نشط من عقال ، في رجل من أهل اليمامة ، فأطنب وأسهب ، وذهب في القول كل مذهب ؛ فقال الواثق : يا أبا عبد الله ، لقد أكثرت في غير كبير ولا طيب . فقال : يا أمير المؤمنين إنه صديق

وأهون ما يعطى الصديق صديقه من الهين الموجود أن يتكلما

فقال له الواثق : وما قدر اليمامي أن يكون صديقك ، وإنما أحسبه من عرض معارفك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إنه شهرني بالاستشفاع إليك ، وجعلني مرأى ومسمعا بين الرد والإسعاف ، فإن لم أقم لهذا أكن كما قال أمير المؤمنين آنفا :

خليلي ماذا أرتجي ... الخ

فقال الواثق : بالله يا محمد بن عبد الملك إلا عجلت لأبي عبد الله حاجته ليسلم من هجنة المطل كما سلم من هجنة الرد .

وقال له الواثق يوماً ضجرا بكثرة حوائجه : قد أخليت بيوت الأموال بكثرة طلباتك للائذين بك والمتوسلين إليك : فقال : يا أمير المؤمنين ، نتائج شكرها متصلة بك ، وذخائرها موصولة لك ، وما لي من ذلك إلا عشق اتصال الألسن بخلود المدح . فقال الواثق : والله لا منعناك ما يزيد في عشقك ويقوى في همتك فينا ولنا . وأمر فأخرج له خمسة وثلاثين ألف درهم

وكان ابن أبي دؤاد من أحسن الناس تأتياً ، وكان يقول : ربما أردت أن

أسأل أمير المؤمنين الحاجة بحضرة ابن الزيات فأؤخر ذلك إلى وقت مغيبه ، لئلا يتعلم حسن التلطف منى .

وكان بين ابن أبى دؤاد ومحمد بن عبد الملك الزيات عداء مستحكم ، حتى إن شخصاً كان يصحب ابن أبى دؤاد ويختص بقضاء حوائجه منعه الوزير ابن الزيات من التردد إليه ، فبلغ ذلك القاضى ، فجاء إلى الوزير وقال له : والله ما أجيئك متكثراً بك من قلة ، ولا متعززاً بك من ذلة ، ولكن أمير المؤمنين رتبك مرتبة أوجبت لقاءك ، فإن لقيناك فله ، وإن تأخرنا عنك فلك ، ثم نهض من عنده

وكان الواثق أمر ألا يرى أحد من الناس ابن الزيات إلا قام له ، فكان ابن أبى دؤاد إذا رآه قام واستقبل القبلة يصلى ، فقال ابن الزيات فى ذلك

صلى الضحى لما استفاد عدوانى ... وأراه ينسك بعدها ويصوم
لا تعد من عداوة مسمومة ... تركتك تقعد تارة وتقوم

ثم أغرى ابن الزيات الشعراء بهجوا بن أبى دؤاد ، فقال فيه إبراهيم ابن العباس الصولى :

عفت مساو تبدت منك واضحة ... على محاسن أبقاها أبوك لكا
فقد تقدمت أبناء الكرام به ... كما تقدم آباء اللئام بكا

وقال فيه حميد بن سعيد :

لقد أصبحت تنسب فى إياد ... بأن يكنى أبوك أبا دؤاد
فلو كان اسمه عمرو بن معدى ... دعيت إلى زيد أو إياد
لئن أفسدت بالتخويف عيشى ... لما أصلحت عيشك فى إياد
وإن تك قد أصبت طريف مال ... فبخلك باليسير من التلاد

ولدعبل فى هجاء ابن أبى دؤاد

إن هذا الذى دؤاد أبوه ... وإياد قد كثر الأبناء
ساحقت أمه ولاط أبوه ... ليت شعرى عنه فمن أين جاء
جاء من صخرتين ثم صلودين ... عقامين ينبتان الهباء
لا سفاح ولا نكاح ولا ما ... يوجب الأمهات والآباء

ولما طال ذلك العداء واستمر هذا الإغراء، عمد ابن أبي دؤاد إلى ما عمد إليه ابن الزيات، فأغرى الشعراء به، فهجاه بعضهم بقصيدة عدد أبياتها سبعون بيتاً، وبلغ خبرها القاضي أحمد فقال:

أحسن من سبعين بيتا هجا جمعك معناهن فى بيت
ما أحوج الملك إلى مطرة تغسل عنه وضر الزيت

فبلغ ابن الزيات ذلك؛ ويقال إن أحد أجداد القاضي كان يبيع القار فقال:

يا ذا الذى يطمع فى هجونا عرضت بى نفسك للموت
الزيت لا يزرى بأحسابنا أحسابنا معروفة البيت
قيّرتم الملك فلم ننقه حتى غسلنا القار بالزيت

ولما حبس ابن الجهم مدح ابن أبي دؤاد عدة مدائح، وسأله أن يقوم بأمره ويشفع فيه، فلم يفعل وقعد عنه، فمن مدائحه

يا أحمد بن أبى دؤاد إنما تدعي لكل عظيمة يا أحمد
أبلغ أمير المؤمنين ودونه خوض الردى ومخاوف لا تنفد:
أنتم بنو عم النبي محمد أولى بما شرع النبي محمد

فأعرض عنه ابن أبي دؤاد، فلما فلج شمت به ابن الجهم وهجاه بقوله:

يا أحمد بن أبى دؤاد دعوة بعثت إليك جنادلا وحديدا
ما هذه البدع التى سميتها بالجهل منك العدل والتوحيدا
أفسدت أمر الدين حين وليته ورميته بأبى الوليد وليدا

إلى أن قال:

وإذ تبسم ضاحكا شبهته شرقا تعجل شربة مردودا

ولما ولى ابن أبي دؤاد المظالم مدحه جماعة من الشعراء فى عصره؛ قال أبو تمام:

لقد أنست مساوئ كل دهر محاسنُ أحمد بن أبى دؤاد
وما سافرتُ فى الآفاق إلا ومن جدواك راحلتى وزادى

فقال له ابن أبي دؤاد: هذا المعنى تفردت به أو أخذته؟ فقال أبو تمام: هو لى، وقد ألممت فيه بقول أبى نواس:

وإن جرت الألفاظ منا بمدحة لغيرك إنسانا فأنت الذى نعنى

وقال فيه أبو تمام :

إلى أحمد المحمود أمّت بنا السرى ... نواعب فى عرض الفلا ورواسم
له من إياد قمة المجد حينما ... سمت ولها منه البنى والدعائم
ولو علم الشيخان أدّ ويعرب ... لسُرّت إذا تلك العظام الرمائم
تلاقى بك الحيان فى كل محفل ... جليل وعاشت فى ذراك العمائم
إذا أنت ضيعت القريض وأهله ... فلا عجب إن ضيعته الأعاجم
فقد هز عطفيه القريض توقعا ... لعدلك مذ صارت إليك المظالم
ولولا خلال سنها الشعر ما درى ... بناة الندى من أين تؤتى المكارم

وهو القائل فى ابن أبى دؤاد من قصيدة أخرى :

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

ومدحه مروان بن أبى الجنوب بقوله :

لقد حازت نزار كل مجد ... ومكرمة على رغم الأعادى
فقل للفاخرين على نزار ... ومنهم خندف وبنو إياد
رسول الله والخلفاء منا ... ومنا أحمد بن أبى دؤاد
وليس كمثلهم فى غير قومى ... بموجود إلى يوم التنادى
نبى مرسل وولاة عهد ... ومهدىٌ إلى الخيرات هادى

ولما سمع أبو هفان المهزمى هذا الشعر قال :

فقل للفاخرين على نزار ... وهم فى الأرض سادات العباد :
رسول الله والخلفاء منا ... ونبرأ من دعى بنى إياد
وما منا إياد إن أقرت ... بدعوة أحمد بن أبي دؤاد

فقال ابن أبى دؤاد : مابلغ منى أحد مابلغ هذا الغلام المهزمى، لولا أنى أكره أن أنبه عليه لعاقبته عقاباً لم يعاقب أحد بمثله ؛ جاء إلى منقبة كانت لى فنقضها عروة عروة .

وكان ابن أبى دؤاد كثيراً ما ينشد هذين البيتين ولم يذكر أنهما له أو لغيره ، وهما :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب
فاليوم حاجتنا إليك وإنما يدعى الطبيب لشدة الأوصاب

وحدث المرزبانى عن أحمد بن أبى دؤاد أنه لما قال أبو نواس فى الأمين :

يا أحمد المرتجى فى كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات

تفزع ابن أبى دؤاد وجعل يقول : لعنه الله ! لعنه الله ! وأحسن ابن أبى دؤاد فى لعنه إياه على هذا الكلام .

ولما أنشد على بن الجهم قصيدته التى مدح بها المتوكل جاء فيها :

وصاح إبليس بأصحابه حل بنا ما لم نزل نحذر
مالى وللغر بنى هاشم فى كل دهر منهم منذر

عظم ذلك على ابن أبى دواد ، فأطرق ، فقال ابن الجهم : يا أبا عبد الله ، ما سمعت مديحاً للخلفاء مثل هذا . قال : ولا غيرى ، ولا توهمت أن أحداً يجترىء على مثله

ومن أجوبته : قال دخلت على الواثق فقال : مازال قوم اليوم فى ثلبك ونقصك . فقلت : يا أمير المؤمنين ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . فالله ولى جزائه . وعقاب أمير المؤمنين من ورائه ، وما ضاع امرؤ أنت حافظه . ولا ذل من كنت ناصره ، فماذا قلت لهم يا أمير المؤمنين ؟

قال : يا أبا عبد الله :

وسعى إلى بعيب عزة نسوة جعل المليك خدودهن نعالها

وكان أبو العيناء الضرير يقول : ما رأيت فى الدنيا أقوم على أدب من ابن أبى دؤاد ، ما خرجت من عنده يوما قط فقال : ياغلام خذ بيده ، بل قال : ياغلام اخرج معه . فكنت أتقد هذه الكلمة عليه فلا يخل بها ولا أسمعها من غيره

وأصيب ابن أبى دواد بالفالج فى أول خلافة المتوكل ، وذهب شقه الأيمن لست خلون من جمادى الآخرة سنة ٢٣٣ هـ بعد موت عدوه محمد بن الزيات ، وولى المتوكل ولده محمد بن أحمد ابن أبى دؤاد المظالم ثم عزله سنة ٢٣٦ هـ وأمر

بالتوكيل عن ضياعه، وأخذ منه مائة ألف وعشرين ألف دينار، وجوهراً بأربعين ألف دينار، وتوفى أحمد فى المحرم سنة ٢٤٠ هـ بعد وفاة ولده بشهر أو نحو ذلك؛ فلما مات وطلع سريره قام إليه ثلاثة من الشعراء، فقال أحدهم:

اليوم مات نظام الملك واللسن ومات من كان يستعدى على الزمن
وأظلمت سبل الآداب إذ حجبت شمس المكارم فى غيم من الكفن

وتقدم الثانى فقال:

ترك المنابر والسرير تواضعا وله منابر لو يشا وسرير
ولغيره يجبى الخراج وإنما يجبى إليه محامـــد وأجور

وتقدم الثالث وهو العطوى فقال:

وليس فتيق المسك ريح حنوطه ولكنه ذاك الثناء المخلف
وليس صرير النعش ما تسمعونه ولكنه أصلاب قوم تقصف

أحمد هاشم عطية

المراجع . . .
ابن خلكان جزء أول
الأغانى جزء ٥، ٧، ٨، ١٢، ١٤، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١ - الموشح للمرزبانى - زهر الآداب للحصرى - العقد الفريد - كتاب الاعتزال للقاسمى - الخطيب البغدادى - هبة الأيام .